کوکب آخر

مجموعة قصصية

مریم تورکان

الإهداء

إلى قلوبٍ أوجعها الصبر، فاحتوت آلامها، وفوّضتْ للَّهِ أمرها.. لا تحزنوا إنَّ اللَّهَ معنا.

مريم توركان

الفهرس:

1_ناني ونِصفِها الثاني

2_دعوني وشأني رجاءً

3_كراكيب للبيع بسعر زمان

4_شيءٌ ما كُسِرَ بداخلي

5_مَلكٌ برداءِ رَجُل

6_حينَ ألتقيتُكَ توّرَدَ قلبي

7_قلم وورقة وخمسة جنيه

8_كوكب آخر

9_وأخيرًا وجدتني

1_ ناني ونِصفِها الثاني

قصّة قصيرة

(ناني ونِصفِها الثاني)

أخشى على نفسي من الاعتيادِ أميرتاي، فبعدَ أنْ كُنتُ وحيدة بائسة، أضحى لديَّ فتاتانِ من أجملِ الفتيات، ليتكَ حَيٌّ عيسى، لتَرى ثِمارَكَ بعدَ أنْ كَبُرَتْ وصارتْ تمشي على رِجلين.

اِحتضنتها ناني بعدما قَبَّلَتْ جبينها، بينما ندى تقولُ بطريقتها الفُكاهية: أضحيتِ أنيسة وبائسة نوال، ثُمَّ ضحكنَّ.

ذهبتْ ناني إلى المُستشفى بعدما أعدَّتْ الإفطار لأُمّها وأُختها الصغيرة ندى، وما أنْ وصلتْ حتّى رأتْ جمعًا من النَّاسِ رغم أنَّ الوقتَ لا يزال مُبّكرًا، سألتْ المُساعِدة فأخبرتها أنَّهم لا يأتونَ مُبّكرًا هكذا، وبهذهِ الأعداد إلَّا أيَّام عملها.

تبسمتْ لها ناني، وألقتْ عليهم التحيّة، ثُمَّ دلفتْ غُرفة الفحص، بينما المُساعِدة تُنّظم المرضى، ليكونَ الدخول بأسبقيةِ الحضور.

مَرّتْ ساعتانِ وقد أنهتْ ناني عملها بعدَ فحصِ آخرِ المرضى، قامتْ بتدبيلِ زيّ العمل بزيّها، ثُمَّ ذهبتْ بعدما أكدتْ على ليلى التراُف بحالِ المرضى، وعدم أخذ أموال منهم غير ثمن تذكرة الفحص.

هاتفتها نوال لتُخبرها أنَّ ندى قد أتتْ من المدرسة، لذا فعليها أنْ تعودَ إلى البيتِ دونَ المرور على مدرسةِ ندى كَالعادة.

أصابَ القلقُ قلبها، فموعد اِنتهاء اليوم الدراسي لم يَحِن بعد، أخذتْ تُفكّر حتّى أوصلها سائق إحدى سيّارات الأُجرة إلى البيت.

دسّتْ مِفتاحها بثُقبِ الباب، وأسرعتْ للإطمئنانِ على أُختها، طمأنتها أُمّها أنَّها بخير، لكنَّ إحدى زميلاتها قد حَدَثَ لها مكروه، ثُمَّ أخبرتها بما حَدث.

دلفتْ ناني غُرفةَ ندى لتوبّخها، لمعرفتها بزميلاتٍ كَتلكَ التي حَدَثَ لها مكروه، تفاجأتْ بردِّ ندى عليها، ودفاعها عن زميلتها، بل ونعتها بالضحية، أخذتْ ناني توضّح لها وتساءلتْ: كيفَ لفتاةٍ بعُمرِ الخامسةَ عشرَ أنْ تحمل بطريقةٍ غير شرعية؟

بل إنَّ الطريقةَ الشرعية التي يُمكنُها أنْ تحملَ بها (الزواج) لم تُكمِل سِنّها المطلوبة، التي أقرّها القانون!

أينَ الأبوينِ من ضياعِ شرف بُنيّتهما؟

بل أينَ هُما من ضياعها هي؟

طلبتْ من ندى أنْ تقطعَ علاقتها بتلكَ الفتاة، ولتُركز في دراستها، لكنَّ ندى قد أخبرتها أنَّها لن تتخلّى عنها، بعدَ أنْ تخلّى عنها مَن فعلَ بِها ما فعل.

شَعرتْ ناني بدوارٍ فدلفتْ غُرفتها لتستريحَ بعض الوقت، بينما نوال تلوم ندى على قِلةِ اِحترامها لكلامِ أُختها، التي كانتْ لها أبًا حينَ ماتَ أبوهما، وأمرتها بتقديمِ الإعتذارِ لها، والإنصياعِ لأمرها.

نهضتْ من فِراشها بعدما ذهبَ الدوار عنها، لتَرى ندى تبتسم لها قبلَ أنْ تُقدّم اِعتذارها، وتُبلغها بأنَّ ما طلبتهُ سيُنّفذ، ثُمَّ عانقتها.

رنَّ هاتفها، ردَّت

فإذ بيوسف قد عادَ من سفرهِ مُنذُ البارحة، اِستأذنَ في القدومِ إليهنَّ، أَذِنَتْ لهُ وذكّرتهُ بألَّا ينسَ هديتها، ضاحكها قبلَ أنْ يُنهي المُهاتفة.

فَرِحَتْ ناني بعودةِ خطيبها يوسف، حُبّ عمرها، وزميل دراستها على مدى سنواتها الطِوال، ها قد أَذِنَ اللَّهُ لقلبها الحزين بالفرح، ولرَّوحها بالسَكينة، ولنفسها بالإطمئنان، فموعد زفافها أوشكَ أنْ يَحين.

فَرِحَتْ نوال بسماعها الخبر الجميل، وراحتْ لتُعِدَّ لهُ ما يُفضّل من الطعام.

أخذتْ ندى ثمن الدرس وذهبتْ، لكنَّها لم تذهب إلى الدرس، بل ذهبتْ إلى بيتِ زميلتها نور، لتُفكّرَ معها في حلٍّ يُخرجها ممّا هي فيه.

سألتها عن وليد الذي تركها بعدما أخذَ منها ما أخذ، تاركًا لها بعضًا منهُ بينَ أحشائها، أجابتها بأنَّهُ قد تَمّلصَ من فِعلهِ بِها، بل قامَ بتهديدها بفضحها إنْ هي أخبرتْ أحد.

أخذتْ ندى تُهوّن عليها، لكنَّ الخوفَ يعتريها؛ فقد أتمّتْ شهرها الرابع من حملها، وستكبُر بطنها في القادمِ من الأيَّام، وسيُفضح أمرها ومن ثَمَّ ستُذبَح.

اِقترحتْ عليها ندى أنْ تُخبرَ أُمّها، وطمأنتها بأنَّ أُمّها لن تُخبرَ أبيها؛ خشيةَ أنْ يقتلَ ابن أُختها وليد.

فَكَّرَتْ نور في اِقتراحِ ندى ورأتهُ عَين الصواب، فوليد هو مَن غَدَرَ بِها، ولم يُراعي صِلة القرابة بينهما، بل زادَ في فُجورهِ حينَ هدّدها بفضحِ أمرها والتنّصُل من جنينها.

عادتْ ندى لتَرى يوسف قد أتى مُحمّلًا بالهدايا، سألها عن مُستواها الدراسي، ثُمَّ أعطاها حقيبة مملوءة بالهدايا خِصيصًا لها، سُرَّتْ بِها ودلفتْ غُرفتها.

أخذَ يوسف يُحدّد موعد الزفاف مع نوال بحضرةِ ناني، وأخبرها أنَّهُ سيُسافِر بناني إلى حيثُ يعمل ويُقيم بإحدى الدول العربية، ثُمَّ سيُرسل لها هي وندى دعوة ليُقيما معهما.

فَرِحَتْ نوال وأكدتْ أنَّهُ قرار صائب، خاصّةً بعدَ أنْ عَمّ الغلاء أرجاء البلاد، وأضحى الجُنيه لا قيمةَ له، حتّى وإنْ عَمِلتْ باقي عُمرها فلن تستطيع اِدّخار بعض المال، أمَّا ما نويتُما فِعلهُ فهو الصواب، كي تستطيعا توفير حياة هانئة كريمة لأولادكما.

مضى شهرٌ وقد تَمَّ عقد القرآن، وأتمَّ يوسف تجهيز شقتهُ ليُقيما بِها بعض الأيَّامِ قبلَ السفر، فَرِحَتْ نوال لفرحِ ابنتها، التي حَلّتْ محلّ أبيها عيسى _رَحِمَهُ اللَّه_ فقد كافحتْ في دراستها وحياتها، فعَمِلتْ بمحلّ الحلويات الخاصّ بأبيها، ثُمَّ توّلتْ إدارتهُ فيما بعد، وها هي قد باعتهُ بعدَ أنْ أضحى من أشهرِ محلّات الحلويات بالقاهرة، ثُمَّ ابتاعتْ بثمنهِ قطعة أرضٍ لتُنشأ عليها بُرجًا سكنيًا فيما بعد.

أخبرتْ نور ندى بموعدِ زيارتها لطبيبةِ النساء بعد يومان، لتُجهضَ جنينها، وهذا هو القرار الذي اِتخذتهُ أُمّها بعدَ أنْ لقيَ وليد حتفهُ بحادثةِ قطار، لم تُخبر والدة نور أُختها أُمّ وليد، وفضّلتْ أنْ تُجهِضَ ابنتها سرًّا.

اِختارتْ ناني فُستانًا أبيضًا كَقلبها، صافيًا كَبشرتها، مُزركشًا، جميلًا، لترتديهِ يومَ زفافها بعد يومان، بينما نوال وندى قد اِختارتا ثوبانِ أنيقانِ يليقانِ بهذهِ المُناسبة السعيدة.

حانَ موعد الزفاف، دَقَّتْ الدفوف، بعدَ أنْ تزيّنَ بيت نوال بأبهى الزينات، فاحَ البخور، نُثرتْ الورود، أُشعلتْ الإضاءة المُلّونة، اِكتستْ الأرض بالسجّادِ الأحمر، واكتستْ الحوائط بالشيفونِ الأبيض، زُيّنَتْ الموائد بألذِّ الحلويات، بالإضافةِ إلى العصائر الطازجة، وكذا الشربات، وبعض الفاكهة والمُكسرات.

أنهتْ ناني زينة الفتيات زينتها، بعدَ أنْ اِكتحلتْ ليظهر لون سوداويها الجميلتان، ووضعتْ بعض طِلاءِ الشُفاه الأحمر كَلونِ وجنتيها، كما نقشتْ رسومات هادئة بالحناءِ على يداها، وخرجتْ ليوسف الذي طالما حَلمَ بهذهِ اللحظة مُنذُ زمنٍ بعيد.

عَلتْ زغاريد نوال ليسمعها القاصي والداني، تعبيرًا عن سعادتها بابنتها ناني، حاولتْ ندى أنْ تُزغردَ لكنَّها فشلتْ، فاكتفتْ بالإمساكِ بذيلِ فُستان العروس.

مضتْ الليلة بعدَ أنْ ذهبتْ ناني مع زوجها لبيتهما، وعادتْ نوال وندى لبيتهما، بينما نور قد فارقتْ الحياة إثرَ نزفٍ حَدَثَ لها أثناء اِجهاضها

على يدِ طبيبة نساء قد فقدتْ شرف المهنة، وخانتْ الأمانة، وحنثتْ يمينها التي أقسمتْ قبلَ أنْ تعمل.

قد تَمَّ القبض على الطبيبة فيما بعد، وعلى إثرِ فِعلتها اللاخلاقية شُطِبَتْ من نقابةِ الأطباء، وتمَّ توجيه تُهمة الإهمال للأُمّ، والتي طلّقها زوجها بعدَ أنْ وارى جُثّة ابنتهِ التُراب، ثُمَّ خرجَ ولم يُعُد.

حينَ عَلِمَتْ أُمّ وليد بالخبرِ أصابها شللٌ نصفي، وأصابَ الخزي بيتهم، من فِعلِ ابنهم البالغ من العُمرِ ثلاثونَ عامًا حالَ فِعلتهِ بطفلةٍ لم تتجاوز الخامسةَ عشر، ناهيكَ عن كونها ابنة خالته.

صُدِمَتْ ندى على ما حَدَثَ لنور، لكنْ سُرعان ما عادتْ لطبيعتها بعدَ أنْ سافرَ يوسف وناني، وأرسلتْ إليهما ناني بعدَ أنْ جهّزتْ لهما شقة بجانبِ شقتها بذاتِ البناية.

اِستقرّتْ ناني وزوجها، وأُمّها وأُختها، كما قامتْ بالتقديمِ لأُمّها بجمعيةٍ خاصّة بتحفيظِ القرآن الكريم، لتُكملَ حفظ كتاب اللَّه، بينما ندى تُشاركها الحفظ، وكذا تهتم بدراستها، فهذهِ هي آخر سنة في شهادتها الثانوية، لتُحقّقَ حلمها بالإلتحاقِ بكليةِ الحقوق؛ كي تفهمَ ما لها وما عليها، ولتكونَ عونًا للمظلومينَ على الظالمين.

مَنَّ اللَّهُ على ناني فأنجبتْ فريدة، ابنة قلبها، أحبَّتها حُبًّا جمًّا، جعلَ يوسف يغار منها بعض الشيء، كما قامتْ بإنشاء البُرج السكني

الخاصّ بمالِ محلّ أبيها، وكذلكَ أنشأتْ بُرجًا آخر خاصّ بابنتها فريدة، ليكونَ سندًا لها في المُستقبل، تستفيد منهُ عندَ الحاجة، على الرغمِ من شراءِ يوسف بعض الأراضي وتخصيصها لفريدة أيضًا.

ذات يومٍ ذهبَ مالك المُستشفى ليُباشِرَ العمل، وما أنْ رأى ناني حتّى وقعَ بغرامها، حاولَ التقرُّب إليها لكنَّها صدّته، حاولَ أنْ يتقرّبَ من زوجها لكنَّهُ أغلقَ في وجههِ الباب.

ساومها على العملِ مُقابلَ أنْ تتطلقَ من يوسف، وستكون المُستشفى مهرًا لها، وستُقيمُ بقصرٍ فخمٍ بأرقى أحياء عاصمة المملكة، لكنَّها رفضتْ وذكّرتهُ باللَّهِ فلم ينتهي، بل قامَ بفصلِ زوجها من عمله، ظنًّا منهُ أنَّهُ سينفرد بها، فاجأتهُ بتقديمِ اِستقالتها، تَمَّ قبولها من قِبلِ أحد أعضاء مجلس الإدارة، والذي يحقد عليها لجدّها واجتهادها.

لم تستطع ناني اِكمال عيشها بتلكَ الدولة، فعقدتْ النيّة في العودة إلى مصر، وقد كان، فبعدَ أنْ أنهى يوسف اِرتباطاتهم من حيثُ السكن والإقامة ودراسة ندى، عادوا إلى القاهرة، ليبني هو وناني مُستشفى اِستثماري، وتُكمل ندى دراستها الجامعية، بينما نوال ترعى حفيدتها فريدة ذات الخمسةِ أعوام.

أصابَ الحُزن قلبَ يوسف حينَ مرضتْ ناني، فتركَ عملهُ وأقامَ معها ليُداويها ويُهوّن عليها، رأتهُ يبكي فمسحتْ دمعه، وتبسمتْ لهُ قبلَ أنْ

تُضيف: آهٍ من الحُبِّ آه، مُنذُ رأيتني بالجامعة ولم تتركني من حينها، بل صمّمتَ على الإرتباطِ بي رغم الفارق الاجتماعي، لم أشعر بالأمانِ بعدَ موتِ أبي إلَّا حينما رزقني اللَّهُ بك، كُنتُ كالتائهة قبلكَ فأهداكَ اللَّهُ لي، لم أَكُن أعلمُ أينَ هي وجهتي حتّى أرسلكَ اللَّهُ إليّ لتكونَ وجهتي، لم تبخل عليَّ بالحنان، بل فِضتَ عليَّ وكفيتني كُلّ شيء، أراكَ أجلُّ نِعَمِ اللَّهِ عليّ.

قَبَّلَها يوسف بينَ عينيها وأردف: ناني نِصفي الثاني، الذي طالما بحثتُ عنه، نصفي الثاني الذي بِهِ أمني وأماني، وراحتي وسكينتي، نصفي الثاني الذي هو سكني ومسكني، ناني رَّوحي بجسدِ امرأة، ناني عقلي برأسٍ آخر، ناني نفسي ونفيستي، ناني جنّتي ودُّنيتي.

ظَلَّ يوسف مُقيمًا بجوارها حتّى اِستردّتْ عافيتها، وعادتْ لبيتها ليزدانَ بوجودها، وتحلو دُّنياها بوجودِ حبيبها، وتسعد بلّمةِ أحبابها.

2_ دعوني وشأني رجاءً

فَرِحَ بها الأبوان، فقد عانا كثيرًا حتّى أنعمَ اللَّهُ عليهما بها، وهذا ما جعلَ قدومها سببًا في إحياءِ الفرحةِ بقلبيهما، رُغم ما هُما عليهِ من ضِيقِ الحال.

مَرّت الأيَّام وبلغتْ رأفة _كما أسمياها_ السادسةَ من عُمرها، فأدخلاها المدرسة الابتدائية الخاصّة بحي إقامتهم، ظنًّا منهما أنَّها ستكون كَسميرة موسى _رَحِمَها اللَّه_ وظلّا يُجاهدانِ معها في الجانبِ التعليمي بجانبِ مَهمتهما التربوية حتّى حَدَثَ ما لم يَكُن يومًا بالحُسبان؟؟

ففي إحدى الليالي الشتوية تحديدًا دلفتْ الأُمّ غُرفة رأفة الطالبة بالصّفِ الخامس الابتدائي لتجدها تَقُصّ بعض شعرها؛ أصابها الذهول فنادتْ زوجها المُنهَك من عملهِ اليومي كَبائع بِليلة، أتاها مُسرعًا ليُفاجأ هو الآخر، جَلسَ على سريرها الحديدي الصغير ليُحدّثها بحنان: رأفة ما بكِ بُنيّتي؟

ما الذي تفعلينهُ بشعركِ الجميل؟

رفعتْ بصرها إليهِ فسالَ دمعها.

اِحتضنها بعطفٍ وسألها عن ما حَدَثَ لها.

أخبرتهُ أنَّ بعض زميلاتها بالمدرسةِ قد سَخِرنَ منها لِتَجَعُّدِ شَعرِها وسُمرةِ لونها، فكرهتْ شَعرِها وأبتْ إلَّا أنْ تَقُصّه.

اِحتضنتها أُمّها وأضافتْ: ابنتي يُقالُ أنَّ شَعر الفتاة هو تاج جمالها و.....

قاطعتها: إنْ كانَ ناعمًا أمَّا شَعري فليسَ كذلك.

ردَّ عليها الأبّ بحنانهِ المعهود: مَن قالَ هذا رأفتي الحبيبة؟

زميلاتي أبي قُلنَّ هذا.

طلبَ الأبّ من زوجهِ أنْ تُعِدَّ لهم الأرز باللبن وتُكثر فيهِ من الزبيب، ثُمَّ أخذَ يُحدّثُ رأفتهُ بعطفٍ ولُطفٍ: رأفتي الحبيبة كيفَ تَرينَ نفسكِ؟

أجابتهُ: أمَّا قَبلُ فكنتُ أراني لا أحدَ أفضلَ منّي، ولا أحدَ يُشبهُني، فأنا رأفةٌ واحدة كما خلقني رَبّي وحيدة، أمَّا بَعدُ فلم أَعُد أرضى بنفسي بما هي عليه، لذا أردتُ أنْ أُغيّر من مظهري لأُرضي زميلاتي.

اِبتسم لها وقَبّلَ جبينها ثُمَّ أردف: أتعلمينَ أنَّكِ قد أخطأتِ فتاتي الجميلة؟

تساءلتْ: كيف أبي؟

سألها: هل ينظر اللَّه إلى صورِ عِباده؟

أجابتهُ: بل إلى القلوبِ أبي.

سألها: مَن الذي خلقكِ رأفة؟

أجابتهُ: اللَّهُ هو مَن خلقني أبي.

سألها: آللَّهُ رَضيَ لكِ ما عليهِ صورتكِ من شَعرٍ مُجعّد ولونٍ أسمر؟

أجابتهُ: بالطبعِ أبي.

سألها: لِمَ؟

فكّرتْ قليلًا قَبلَ أنْ تُجيبهُ: لأنَّني جميلة فاللَّهُ لا يَخلقُ إلَّا حَسنًا.

تبسمَ لها ثُمَّ سألها: إذا كانَ اللَّهُ قد رَضيَ لكِ هذهِ الخِلقة، لِمَ تُحاولينَ تغييرها؟

اِبتسمتْ ثُمَّ قالتْ: لن أفعلَ بعد الآن أبي، فأنا جميلةٌ كما خلقني رَبّي، ولستُ بحاجةٍ لإقناعِ أحد بهذا، يكفيني أنَّني بعَينِ نفسي رائعة، وكذا بعيناكما حضرتُكَ وأُمّي الحبيبة أبي.

هَشَّ لها وبَشَّ ثُمَّ أخذوا يتناولونَ الأرز باللبن المُزيّن بالزبيبِ والذي أعدَّتهُ أُمّها للتو.

مَرّت الأعوام وأنهتْ رأفة تعليمها الثانوي بصعوبةٍ بالغة بعدما ماتَ أبيها، وأمتهنتْ أُمّها عملهُ؛ كي تستطيعا البقاء على قيدِ الحياة.

لم تُفكّر في إكمالِ تعليمها الجامعي قدرما فكّرتْ في كيفيةِ كَسبِ المال ومن ثَمَّ إراحة أُمّها.

بحثتْ كثيرًا عن عملٍ مُناسبٍ لكنَّها لم تجد، سألتْ بعض أصدقاء أبيها لكنَّهم لم يُفيدوها في شيء، حاولتْ وحاولتْ وحاولتْ لكنْ لم تُوَّفَق.

تَمُّر الأيَّام ورأفة جليسة البيت، تُساعد أُمّها في إعدادِ البِليلة، وتُراجع القرآن الكريم الذي حَفِظَتهُ مُنذُ أعوام، ثُمَّ تُعمِلُ عقلها فتقوم بتصنيعِ ألعاب ذكاء خاصّة بالمرحلة الابتدائية، تقوم بتصنيعها من زجاجاتٍ فارغة، وبعض الورق وقصاصات بلاستيكية مُلّونة.

ظلّتْ هكذا حتّى أتمّتْ الثانية والعشرون، تقوم بتصنيعِ الألعاب وإهدائها لأطفالِ الحي، وتُساعد أُمّها في مَطعمها الخاصّ بطهي البِليلة.

عرضتْ عليها إحدى مُعلّمات الحي أنْ تقومَ بإنشاءِ قناة خاصّة بفكرتها على إحدى مواقع التواصل الاجتماعي؛ لعُمومِ الفائدة ولرُبّما حالفها الحظّ فلاقتْ تشجيعًا ودعمًا، فكّرتْ في الأمرِ ثُمَّ استأذنتْ أُمّها بعدَ أنْ استخارتْ رَبّها فأذِنَتْ لها.

أصبحتْ قناة رأفة مشهورة محلّيًا بعد إنشاءها بعامٍ ونصفِ العام، وجاءها عرض من إحدى المصانع بتبّني فكرتها والإنفاقِ عليها حتّى النجاح، قَبِلتْ العَرض وذاعَ صِيتها في أرجاءِ الوطن، ثُمَّ تخطى حدود الوطن إلى دولِ الجوار وإحدى الدول الغربية.

مَضى عامانِ وقد بلغتْ رأفة من الشُهرةِ ما لم تبلغهُ امرأةٌ مثلها، وهذا ما جعلَ إحداهنَّ تحقد عليها بل وتُفكّر في طريقةٍ لتكونَ سببًا في خَسارتها.

لم تَرى تلكَ الحاقدة سوى عمل أُمّ رأفة لتُشّهرَ بها عن طريقهِ، كذلكَ بالإضافةِ إلى صفات رأفة التي عانتْ بسببها في الصِغر؛ كَشَعرها المُجعّد ولونها الأسمر، بحثتْ عن طريقةٍ للتشهير برأفة فكانَ مَقطعًا مُعَدًّا بتقنيةِ الذكاء الاصطناعي، يُحاكي صوت رأفة وشكلها، يقوم بالتقليلِ من هذهِ وتلك، والسبّ والقذف، وغيرهِ من الأفعال المُشينة.

نفتْ رأفة ما نُسِبَ إليها من أفعالٍ مُشينة، ثُمَّ استعانتْ بمُتخصصٍ في عِلمِ البرمجة ليُثبتَ لمَن قاموا بمُقاضاتها براءتها مما نُسِبَ إليها.

عادتْ رأفة إلى بيتها لتجد أُمّها ميّتة بعدما حَزِنَتْ عليها فتوقفَ قلبها عن العمل.

مرّت الأيَّام وأضحتْ رأفة هي المسؤولة عن مطعمِ أُمّها بعدما أغلقتْ القناة، وفضّلتْ العملَ في صمتٍ بعيدًا عن ضوضاءِ الغوغائيين.

فَرِحَتْ الحاقدة حينَ لم تجد قناة رأفة، وعادتْ لتَبُثَّ فُجرها في أنفُس ضُعفاء العقول، ومُرضاء النفوس، ثُمَّ أخبرتهم أنَّ السمراء ذات الشَعر المُجعّد ابنة بائعة البِليلة قد ذهبتْ لعالَمها، إذ لا مكانَ لها في مواقع التواصل الاجتماعي.

3_ كراكيب للبيع بسِعرزمان

أخذَ يتفحص أشياءهُ المحفوظة بغُرفةِ الكراكيب الخاصّة بهِ، وَقَفَ مُتوسطًا الغُرفة، مُتأملًا ما تحويهِ من صناديقٍ قديمة، وأوراقٍ عتيقة، وملابسٍ مُهترئة، بالإضافةِ لأشياء أُخرى.

بَحَثَ بجيوبهِ عن مالٍ فلم يَجد، تذكّرَ نصيحة صديقهُ الصدوق، حينَ أشارَ عليهِ ببيعِ بعض كراكيبهِ علّهُ يَجد لها مُشتري؛ ليستطيع العَيش بثمنها بعدما قامَ بصرفِ راتبهِ على فواتير الكهرُباء والماء والغاز، وبعض الخُبز الذي ابتاعهُ، أعادَ اِنتباههُ سقوط أحد الصناديق من أعلى الأرفُف، أسرعَ إليهِ ليجدهُ قد تحطمَ فأخرجَ ما كانَ بداخلهِ.

تفحصَ مُحتواهُ فسالتْ عَبراته؛ إذ رأى بعض الدفاتر المحبورات من زمنٍ مَضى، أخذَ يقرأ بعضها فوجدها نصائح مُوَّجهةٌ إليهِ من أبيه، قرأها بفؤادهِ وعيناهُ تذرفان، ثُمَّ تَرّحَمَ على أبيهِ ولملمَ مُحتوى الصندوق ووضعهُ جانبًا.

نظرَ حولهُ فوجدَ ما جذبَ اِنتباههِ جذبًا، صندوق مُعنون برسائل من الماضي إلى الحاضر، أخذ

ينفض عنهُ الغُبار ثُمَّ فتحهُ وبدأ بقراءةِ بعضًا من الرسائل، زيّنتْ البَسمة وجههُ إذ أنَّ التفاؤلَ هو الغالب على رسائله، كما أنَّهُ كانَ يُعزّي نفسهُ على ما هو فيهِ الآن من زمنٍ فات، أغلقَ صندوقهُ ووضعهُ جانبًا.

اِنتصبَ واقفًا وتساءل: أظنُّ أنَّ صديقي كذبَ عليَّ حينَ أخبرني أنَّ كراكيبي ذات قيمة، رُغم أنَّني لم أعهدهُ إلَّا صادقًا، ولكنْ مَن الذي سيشتري منّي أشيائي هذهِ؟

تفقدَ باقي الكراكيب علَّهُ يَجد بها ما يُمكن بيعه، لكنْ هيهات؛ فكُلّها قِيمٌ وأخلاقٌ، وآدابٌ ونصائح، حتّى الملابس المُهترئة هي جُبّةُ جدّي _رحمهُ اللَّه_ وباقي الأشياء هي جلابيبُ أُمّي _رَحِمَها اللَّه_ كذلكَ مِسبحة أبي _رَحِمَهُ اللَّه_ سيراها البعض بلا قيمة، بينما هي جزءٌ من قلبي وبعض عُمري، هي ليستْ كراكيب وحسب؛ بل هي بعضًا منّي، ما هذا العصر الذي نعيش؟

وصلتْ بيَ الحال أنْ أبيعَ بعضي كي أبقى على قيدِ الحياة!

وهل هُناكَ حياة لمَن باعَ بعضه؟؟!

أعرضَ عن فِكرةِ صديقهِ لكنْ سُرعان ما أجبرهُ الغلاء على الإقدامِ عليها بقلبِ فارسٍ مغوار، أعدَّ عُدّتهُ ولملمَ كراكيبهُ، ثُمَّ وضعها في عربةٍ قد اِستأجرها وذهبَ إلى السوق.

نظرَ حولهُ بعينيهِ المُرهقتينِ فوجدَ مساحة بالكادِ تكفي كراكيبه، أسرعَ بإخراجِها من العَربةِ وقامَ بوضعها، ثُمَّ أخذَ يُنادي: كراكيب للبيع بسِعر زمان، لا تخف أيُّها المُشتري فهي قيّمة، نفيسة ذات قيمة في زمنٍ عَزَّتْ فيهِ القِيَم.

أتاهُ أحدهم ليتفحصَ بعضها، ثُمَّ نَظَر

إليهِ بسُخريةٍ وأردف: ما هذا الذي تبيع؟

أجُنِنتَ يا رَجُل؟

اِبتسمَ البائع قبلَ أنْ يُضيف: هذهِ بضاعتي وأنا بكاملِ قُوايا العقلية.

وهُنا تعالتْ ضحكات المُشتري.

سألهُ البائع عن سببِ ضحكهِ.

أجابهُ: إنَّها بضاعةً مُزجاة، لا قيمةَ لها، أنصحكَ بإعادتها إلى المِزبلةِ التي أخرجتها منها.

سالَ دمعهُ قبلَ أنْ يُضيف: لا سامحكَ اللَّهُ فقد جرحتني دونَ جِنايتي بحقّك، ما تدّعي أنَّها بضاعةً مُزجاة هي بعضي، ليسَ هذا فحسب، بل هي بعض أعزّاء قلبي؛ فهذهِ جُبّةُ جدّي _رَحِمَهُ اللَّه_ المُعلّم في الأزهرِ الشريف هاكها لتَرى، وهذهِ مِسبحةُ أبي شيخ الكُتّاب _رَحِمَهُ اللَّه_ أمَّا هذهِ فهي جلابيبُ أُمّي ربّة البيت والمُربية الفاضلة _رَحِمَها اللَّه_ وأمَّا عن هذهِ الصناديق، فهذا صندوق نصائح أبي الثمينة هاكَ بعضها، وهذا صندوق رسائل من الماضي إلى الحاضر، وهذا صندوق الأحزان؛ جمعتُ بهِ ما أحزنني ليجتنبهُ المُشتري حتّى لا يُصابَ بالحُزن.

هاكَ بضاعتي، تفقدها ثُمَّ احكم، لا تدع لسانك يغلب عقلك، ولا تسرُعك يغلب صبرك، أعطي لعقلكَ فُرصة التفحيص ثُمَّ احكم بعدها كيفما شئت.

لا تَكُن فظًّا غليظَ القلب، فما تراهُ أنتَ بلا قيمة رُبما يُمّثلُ بعضًا من حياةِ صاحبه، فرفقًا بالقلوب.

تركَ المُشتري ما بيدهِ، ومَسَحَ عَباتهِ ثُمَّ رَبتَ على كَتفِ البائع وأردف: صدقتَ وأحسنت، سامحني فعُذري الجهل.

تبسمَ لهُ البائع: سامحني وسامحكَ اللَّه.

عادَ يُنادي: كراكيب للبيع بسِعر زمان.

4_ شيءٌ ما كُسِرَ بداخلي

لملمتْ أوراقها المحبوراتِ بحبرِها السرّي بعدما أخرجت بعض ما يُؤرق ليلها، ثُمَّ وضعتهنَّ بصندوقِ أوجاعها؛ ذاكَ الصندوق الذي يحوي أوجاعها دونَ شِكاية، جاءتها الفكرة حينَ ظلمها أباها ولم تجد مَن يُنصفها، بحثتْ في خِزانةِ أشياءها القديمة فوجدتْ لوحًا خشبيًا، قطّعتهُ وصمّمتْ منهُ صندوقًا ليكونَ لها بمثابةِ رَفيقٍ لا يتركها حتّى تستغني هي عنهُ فتُعيدهُ لوحًا خشبيًا كما كان.

أغلقتْ صندوقها وحَفِظتهُ بخِزانةِ ملابسها، اقتربتْ من النافذة المُغلقة، فتحتها لتعلَم أنَّ الليلَ قد أتى بسدولهِ، فقد غَطى ظلامهُ فِناء الدار، أعادتها مُغلقة كما كانتْ وراحتْ لتتوّسد.

وضعتْ رأسها على وسادتها المُبتلّة بِدَمعِها، ثُمَّ لامستْ قفصها الصدري ويكأنَّها تتحسّس قلبها، سُرعان ما رفعتْ يدها عن مَوضعِ نبضها، وقامتْ لتبكي وجعًا ألّمَ بنياطها.

أثناء ذلكَ سَمِعَتْ صوتَ الكروان يأتيها من بعيد، كفكفتْ دَمعَها وأسرعتْ إلى النافذة، فتحتها ليقتربَ صوت الكروان منها، أخذتْ نفسًا عميقًا ثُمَّ تأملتْ ذاكَ الصوت الجميل الذي يَشُّق سكون الليل.

لحظاتٍ وغادرَ الصوت لتعودَ هي لسريرها، نظرتْ ليدها اليُسرى بعدما تحسّستْ عِرقها الموصول بقلبها، وهُنا ذرفتْ عيناها، فأضافتْ: ما هي فائدتُكَ بعدما ماتَ بعض قلبي؟

قُلْ لي؟

بل ما فائدة الجسد حينَ يُقضَى على القلب؟

القلب، تلكَ المُضغة التي لا يَعلمُ أسرارها إلَّا مَن فَطرها.

وهُنا تذكّرتْ قولَ اللَّهِ سُبحانَهُ وتعالى: "ألا بذِكرِ اللَّهِ تطمئنُّ القلوب"، دلفتْ دورة المياه، توضأتْ ثُمَّ صَلّتْ ركعتا قضاء الحاجة، وأخذتْ تلهج بالدُعاء، لعلَّ اللَّهَ يُحدِثُ بعدَ ذلكَ أمرًا.

اِنتهتْ من صّلاتها وقد هدأتْ بعض الشيء، أخرجتْ بعض أوراقها من حقيبتها الصغيرة، وأخذتْ تسطُر بحبرِها السرّي ما يُؤلم قلبها: عجيبٌ أمرَ هذهِ المُضغة!

فقد تكونُ سببًا لسعادةٍ لا يُضاهيها سعادة، وقد تكونُ سببًا في الشقاءِ والتعاسة، وكلاهما موقوفٌ على قضاءِ اللَّهِ وقدره.

حينَ أتأملُ القلبَ أجدْهُ كَالرضيعِ الذي هو بحاجةٍ إلى مَن يعتني به، كذلكَ هو بحاجةٍ إلى مَن يحميهِ ويحفظهُ بل ويُدافع عنه؛ فهو لا حولَ لهُ ولا قوّة لهُ اللهمَّ إلَّا ضَّخ الدّم في العروق.

القلب هو تلكَ الوديعة بينَ أُصبُعِ الرحمٰن، يُقلّبها كيفما شاء، ولأنَّهُ سُبحانَهُ هو فاطِرُ تلكَ المُضغة فلا يُحزنها أبدًا، حتّى وإنْ قدّرَ على صاحِبها البلاء فتراهُ رحيمًا بهِ، مُترأفًا بحاله، يَعزّ عليهِ سبحانهُ أنْ يتركهُ لنفسه، كيفَ لا وهو الذي خلقهُ من الطّينِ ونفخَ فيهِ من رَّوحهِ فجعلهُ بَشرًا.

وضعتْ ورقتها بصندوقِ أوجاعها بعدما اِنتهتْ من كتابتِها، ثُمَّ قامتْ لخِزانةِ ملابسها فارتدتْ زيّها الذي تُحِبّ، ووقفتْ أمامَ المرآةِ تتفقد ملامحها، في تلكَ الأثناء لمحتْ صورة والدها الساقطة بجوارِ المرآة، اِلتقطتها وتعمّقتْ بها حتّى سَالَ دَمعها، وأخذتْ تُحَدّثها: لماذا يا أبي؟

أليسَ من الفِطرةِ أنْ تكونَ سَندي والأمان في هذهِ الحياة؟!

لماذا يا أبي؟

ألم يُفتَرض بكَ أنْ تكونَ قوّتي وحِمايتي؟

لماذا يا أبي؟

قد أحببتُكَ حُبًّا لم ولن يُحبُّكهُ أحدٌ غيري.. أنا بضعتك.

شيءٌ ما كُسِرَ بداخلي حينَ ظلمتني أيا أبتي، ليسَ هذا فحسب، بل وسلبتني أماني فلم أَعُد في مأمنٍ إلَّا من اللَّه.

زحزحتْ طُمأنينة قلبي أبتي فلم أعُد أطمئنّ إلَّا بذِكرِ رَبّي.

حتّى حركتي شُلّتْ حينَ أردتَ أنتَ ذلك.

أينَ أنتَ من الأبوّةِ أبتي وأينَ الأبوّة منك؟!

أمَّا قَبلُ فكنتُ أحزنُ حينَ أُظلَم منكَ أبي، وما ذاكَ إلَّا لوجودكَ بقلبي، أمَّا بَعدُ فقد خرجتَ من قلبي أبي ولن تعودَ إليهِ ثانيةً حتّى ألقى اللَّهَ جلَّ وعَلا، وما كانَ لي عليكَ من حقٍّ فعندَ اللَّهِ المُلتقى.

كفكفتْ دَمعَها المُنهمر وتوّسدتْ بعدما تَلتْ بعض آي الذِكر الحكيم.

وفي صبيحةِ اليوم التالي نهضتْ مُسرعةً لتَنعَم بأشّعةِ الشَّمس الصباحية، ثُمَّ وقفتْ أمامَ المرآةِ لتُحدّثَ نفسها: حتّى وإنْ شَعرتُ بأنَّ شيئًا ما كُسِرَ بداخلي سأُقاوم، وسأُطبِقُ قفصي الصدري على قلبي كي لا يُسمَع لوجعي صوت.

سأَحيِكُ جُرحي بالرضا بقضاءِ اللَّهِ وقدره، وسأقبُرُ دَمعي بمقلتاي، وسأبتسم لأُطمئنَّ مَن حَولي بينما يثورُ ما بداخلي.

هي دُنيا ما كانتْ لنا وما كُنّا لها، خُلِقنا للعِبادة، وما دونَ ذلكَ ما هي إلَّا أسباب تُعين على العِبادة، وخالِقُ الأسباب كفيلٌ بتوزيعها، كما هو كفيلٌ بالأرزاق.. فقدّرَ اللَّهُ وما شاء فعل.

5_ مَلكٌ برداءِ رَجُل

قدّرَ اللَّهُ لها السعادة فألتقتهُ صُدفةً قدرية، دبّرها اللَّهُ قبلَ أنْ يخلقَ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كانتْ تسيرُ في طريقِ الحياةِ دونَ وُجهةٍ بعينها، جذبها قدرُ الرحمٰن إلى حيثُ وُجهتهُ فكانَ اللقاء.

لم تَكُن تعي ما يُدبَّرُ لها من فرحةٍ تجبُر قلبها بأمرِ اللَّه، قُدِّرَ لها أنْ تتخلص من مخاوفها فرُزِقَتْ بهِ، قُدِّرَ لها أنْ تزيدَ شجاعتها فأنعمَ اللَّهُ عليها بهِ، أُريدَ بها الخير فوفقَ اللَّهُ لهما اللقاء.

كانتْ لا تُنصتْ لقلبها أو قُلْ رُبما لم تَشعُر بقلبها إلَّا حينَ رأتهُ في ذلكَ اليوم، اليوم الذي اِجتمعتْ فيهِ الأسباب لتحولَ بينها وبينَ لقائهِ لكنَّ اللَّهَ إذا أرادَ شيئًا كان.

اِرتدتْ زيّها المُميّز وهَمّتْ للذهابِ حيثُ هو ينتظرها، لكنَّ حَدَثَ ما بدا أنَّهُ سيمنعها من الذهاب، هاتفتهُ والغُصّة تسري بجوفها مُعتذرةً عن المجيء، هدّأ من روعها بنبرتهِ الحنون، وطمأنَ قلبها بكلماتهِ الواثقة باللَّه، ذرفتْ عيناها بعدما أغلقتْ هاتفها المحمول، رأتها أُمّها هكذا فأشفقتْ عليها ودعتْ لها بالخير، ثُمَّ شّجعتها على الذهابِ فذهبتْ بصُحبةِ أخيها.

ما أنْ خرجتْ حتّى تصّعبَ عليها الذهاب؛ فلا وسيلة مواصلات مُتوفرة، وحذائها قد تقطّعَ نعليهِ دونَ سابقِ إنذار، كما أنَّ رصيدها قد نفد.. إذًا كيفَ السبيلُ إليه؟

أخذتْ تدعو اللَّهَ ألَّا يردّها خائبة، وما هي إلَّا لحظاتٍ وأتاها تاكسي من حيثُ لا تدري بعدما هَمّتْ بالعودةِ إلى البيت، سألتهُ عنوان حفل التكريم فأبتسم وأضاف: تفضلي ابنتي، العنوان ليسَ ببعيدٍ، ركبتْ هي وأُختيّها في المِقعد الخلفي، وشغلتْ نفسها بالنظرِ من النافذة، دقائق ووصلتْ إلى المكان، سألتْ السائق العجوز عن أجرهِ، أخبرها فأعطتهُ إيَّاهُ وخرجتْ.

وقفتْ أمامَ المكان وهاتفها خالي من الرصيد، ودعتْ رَبّها أنْ يجعلهُ يتصل بها، لُحيظةٍ وكانَ يتصل بها، هاتفتهُ بأنَّها تنتظرهُ في الخارج، خرجَ إليها مُسرعًا ولا زالَ يُهاتفها، ثُمَّ طلبَ منها أنْ تنظرَ أيمنَ منها، فعلتْ فرأتهُ مُقبلًا عليها، شعرتْ بشيءٍ لم تشعر بهِ طِيلةَ عُمرها، سعادة بالغة تُنعِشُ نفسها، فرحة غامرة تُدغدِغُ رَّوحها، إحساسٌ رائع سَكَن قلبها فسَكَنَ قلبُها.

صافحَ أخيها وتعانقا، ثُمَّ ألقى عليها السلام، ودلفوا إلى القاعةِ حيثُ التكريم.

دقائق وخرجوا إلى الحديقةِ بعدما انتهى التكريم، وقبلَ أنْ تذهب أراها هو القمرَ بدرًا رُغم أنَّهُ في بدايةِ الشهر الهجري، وأخبرها أنَّ تلكَ حالة نادرة قَلّما تَحدُث، سُرّتْ بما أخبرها بهِ، ثُمَّ أوقفَ لهما تاكسي هي وأُختِها، وطلبَ من السائقِ أنْ يوصلهما لبابِ بيتهما.

ودّعهما وأخذَ ينظر إلى التاكسي حتّى غادر.

عادتْ هي إلى البيتِ لتراها أُمّها بوجهٍ غير الذي ذهبتْ بهِ.

دلفتْ غُرفتها لتُبدّلَ ملابسها وقلبها يكاد يقفز من صدرها لفرطِ سعادتها؛ فهي التي لم تشُعر بالسعادةِ الحرفية من قبل، أخذتْ تَحمدُ اللَّهَ على أنْ قدّرَ لها لقاء ذاكَ الطيّب الطاهر.

ثُمَّ أخرجتْ دفترها وأخذتْ تسطُر بعضًا من مَكنونِ مشاعرها تحتَ عُنوان: مَلكٌ برداءِ رَجُل.

مَرّت الأيَّام وتأكدَ ظنّها أنَّهُ ليسَ رَجُلًا عاديًّا؛ بل هو كَالمَلكِ بالنسبةِ لكثيرٍ من البشر، هو طاهر القلب والرَّوح، هو صاحبُ نفسٍ راضية، هو النقي التقي، هو البرئُ من خَبَثِ الدُّنيا، العاري من زَيفِها، المُتملّصُ من خُدعِها، الصادقُ رُغم كذبها، المُتواضعُ للَّهِ ربّ العالمين.

يظنّ نفسهُ عاديًّا وهو عَظيمٌ مَيَّزهُ اللَّهُ عن غيرهِ مِن البشر.

زادها اللَّهُ من فضلهِ فجعلها تعملُ تَحتَ إدارتهِ، وكأنَّهُ سُبحانَهُ وتعالى يُقرّبها منهُ رُغم بُعد المسافات.

اِكتشفتْ مع مرورِ الوقتِ إحساس آخر، وهو إحساس البعض من كُلّهِ أو الأصل وفرعهِ، أحسّتْ ويكأنَّهُ كُلّها، أو قُلْ أصلها، أحسّتْ بالإنتماءِ إليهِ، إحساسٌ لم تَحسّهُ البتة؛ إحساسُ الإنتماءِ إلى شخصٍ بعينهِ رُغم كثرة الخلائق.

طوتْ صفحة قلبها على إحساسها إلى أنْ يشاء اللَّه، ثُمَّ جعلتْ مَن تَحسّ بالإنتماءِ إليهِ رفيقَ دعواتها في الصّلاةِ والصوم، كما أودعتهُ الرحمٰن فهو الذي لا تضيع ودائعه، ظلّتْ هكذا إلى أنْ شاء اللَّهُ لها الخير وأَذِنَ لها بالجبرِ فتقدّمَ لها خاطبًا.

لم تسعها الدُّنيا لسماعِها هذا الخبر الذي نزلَ على قلبِها كَالماءِ الباردِ على الظمأ، لكنْ دائمًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السُفن، فقد اِتفقَ الأشقاء على عدمِ زواجِ شقيقتهم في الوضعِ الراهن؛ نظرًا لتعسُّرِ الظروف، سرتْ الغُصّة بحلقِها وسالتْ عَبراتها، فهي تعلم أنَّهُ يُريدها وهي كذلك، كما أنَّهُ قد فضّلها على كثيرٍ من الفتياتِ تفضيلًا، هو مَن آوتْ إلى رَّوحهِ رَّوحها فاستقرتْ، هو مَن سَكَنَ قلبها فَسَكَنَ قلبُها، هو مَن بثَّ الأملَ بنفسها، هو مَن غَسَّلَ قلبها من مخاوفهِ، هو مَن زادها شجاعة وقوّة رُغم ما يفصل بينهما من بُلدان.

أتظنّهُ رَجُلًا عاديًّا بعد كُلّ ما رأتهُ منه؟

لم يتمكن اليأس من قلبِها رُغم واقعها البائس، وهذا ما تعلّمَتهُ منهُ؛ تعلّمتْ منهُ معنى الرضا حينَ شاهدتهُ مُستسلِمًا لقضاءِ اللَّه وقدره، راضيًا حامِدًا، ذاكرًا، شاكرًا، قانِعًا رُغم ما لا يَروقهُ، تأملتهُ فانبهر عقلها؛ كيفَ لرَجُلٍ أنْ يَقبلَ ما يكره بنفسٍ راضية طالما هو قدرُ اللَّه؟

بل كيفَ لرَجُلٍ أنْ يتعايش مع سوءِ القضاء دونَ سخطٍ أو غضب؟

نصحها بالكثيرِ من النفائسِ وعلّمها الأكثر، وهي المُنصتة لهُ والحالمة على طلبِ العِلم منهُ.

رَجُلًا أهدانيها الذي خلقها وتكفّلَ بها، رَجُلًا ليسَ كَسائرِ الرجال، رَجُلًا نفيسًا في زَمنِ أشباه الرجال، رَجُلًا في زَمنٍ عَزَّ فيهِ الرجال.

تسلّحتْ بالدُعاء، وأعدّتْ عُدّتها من الأمل، وأيقنتْ أنَّ أمرَ اللَّهِ نافذ لا مَحالة، وأنَّ ما يُريدهُ الرحمٰن يكون، وأنَّ الأمر كُلّهُ لهُ سبحانهُ وتعالى.

أخذتْ تلهج بالدُعاءِ في صّلاتها: قلبي بينَ أُصبعيك والأمر كُلّهُ إليك، وكُلّها يَقينٍ بأنَّ اللَّهَ لن يخذلها، حاشاهُ أنْ يَدعها إلَّا أنْ يُبلّغها مُرادها.

6_ حينَ التقيتُكَ تَوّردَ قلبي

كانتْ تحيا حياة الأمل رُغم واقِعها البائس، سعيدة برضاها، غنيّة بإكتفائها، قوّية بإستغنائها عمّا لا تَملِك.

قرأتْ رواية أبو الفوارس فأُعجِبَتْ ببطلِها المغوار، المِقدام، الشُجاع، الحنون، والعاشق الولهان.

لَكَم تمنّتْ أنْ تَحظى بمِثلِ عنترة بن شَدّاد؛ ليكونَ عونًا لها على مصائب الدهر، حنونًا عليها، شاعِرًا بها ولها، مُحِبًّا لها دونَ سِواها، دِرعها الذي تختبئُ خلفهُ كُلّما خَشيتْ شيئًا، أمنها وأمانها.

يبدو الأمر مُستحيلًا في عصرنا هذا، لكنَّها أبدًا لا تَفقِدُ الأمل، لرُبّما هُناكَ عنترة يدعو بها في صّلواتهِ كما تَفعل هي، هكذا هي الحياة؛ ما تتفوّه بهِ يَحدُث لك، وكما قِيل: "كُلّ مُتوَقعٍ آت".

لم تَكُفّ يومًا عن حلمها بفارسِها الذي رسمتهُ بِمُخيّلها، هذا الفارس الذي يأتيها على قدميه، إذ لا داعي للخيلِ الآن، مُصطحِبًا معهُ مجموعة من الكُتبِ المُتنوعة؛ فهي تُحِبُّ هدايا الكُتبِ بل وتُفضّلها على غيرها، ولا بأسَ من وجودِ باقة من الورد الأحمر البلدي.

ظلّتْ هكذا حتّى شغلتها الهموم عن حلمها؛ حيثُ ابتلاها اللَّهُ بِفَقدِ والدها، وتَعسُّر حال أشّقاءها، ومن قبلهم موت جدّتها، فتصّدعتْ جُدران قلبها الصغير، حتّى شَعَرتْ ويكأنَّ الدّمَ قد تَجَمّدَ بهِ، رُغم هذا

لم تيأس فسلّمتْ للَّهِ أمورها، واتخذتْ من الصّبرِ زادًا لها، وجعلتْ من الدُعاءِ سلاحها.

في إحدى صباحات شهر مايو قرأتْ خبرًا يُفيد بأنَّهُ تَمّ الإعلان عن مُسابقةٍ لعُشّاقِ الشِعر الجاهلي، وعلى مَن يَرغب بالمُشاركةِ في المُجارة الشِعرية اِختيار شاعِرًا بِعَينه، ومِن ثَمَّ تأليف قصيدة مُجارةً لقصيدته.

فَرِحَتْ كثيرًا وعادتْ تقرأ من جديدٍ عن فارِسها المغوار عنترة بن شَدّاد، ثُمَّ نَظَمَتْ قصيدتها مُجارةً لمُعلّقتهِ المُذّهبة، ونظرتْ إلى الشروطِ فوجدتْ أنَّها مُوافقةً لها.

أعدّتْ عُدّتها وذهبتْ مساء الجُمعة من شهرِ سبتمبرٍ إلى مقرّ المُسابقة، ظلّتْ جالسة حتّى جاءَ دورها بعدما غادرَ المُتسابقون؛ إذ كانتْ هي آخرهم، وقفتْ أمامَ رئيس لجنة التحكيم لتُلقي قصيدتها، رَحّبَ بها ثُمَّ أَذِنَ لها بالبدء، رفعتْ رأسها بعد أنْ رتّبتْ أوراقها لتراهُ هو، أجل هو؛ فارِسها التي طالما حَلمتْ بهِ مرّات ومرّات، أخذتْ تبتسم دونَ توقُفٍ حتّى سألها بصوتٍ رخيم: أكُلّ شيءٍ على ما يُرام؟

أومأتْ ثُمَّ أخذتْ تُلقي عليهِ قصيدتها لا تَرى سِواهُ بلجنةِ التحكيم.

وما أنْ اِنتهتْ من إلقائها أخذَ يُصّفق لها بحرارة، تبسمتْ لهُ، رَدَّ بمِثلها، لملمتْ أوراقها ثُمَّ غادرتْ القاعة.

جلستْ بالحديقةِ تُفكّر في ملامحهِ الوسيمة، ورَّوحهِ الأخّاذة التي أَسَرتها، بالإضافةِ لطُهرِ قلبهِ ورِضا نفسه.

لم تَكُن تَقنعُ بأنَّ أحلامَ الخيالِ تَلقى صداها في أرضِ الواقعِ حتّى رأتْ حلمها يمشي على رجلين.. رأتهُ هو.

مساءُ الخير، قالها بصوتهِ الرخيم المُطمئن، رفعتْ بصرها لتَراهُ شامخًا كَشموخِ العَبّاس، ضيّاءٌ وجههُ بنورِ بسمتهِ الصادقة.

مساءُ الخير، قالتها على استحياءٍ حتّى أنَّها لم تَبلُغ آذانه، استأذنها في الجلوسِ فأَذِنَتْ له.

سألها عن قُدرتها على نَظمِ قصيدتها لمُجارةِ مُعلّقة عنترة بن شَدّاد، ولِمَ هو تحديدًا؟

أخبرتهُ بإعجابها بشخصيتهِ الفريدة، كما أنَّها أحبَّتْ مُعلّقتهِ إذ لامستْ كلماتها أوتار قلبها، ثُمَّ سألتهُ: أهذهِ الأسئلة لها عَلاقة بالمُسابقة؟

طمأنها بإجابته: قد اِنتهتْ المُسابقة فورَ مُغادرتكِ القاعة.

أخذَ ينظر إليها بتعمُّقٍ وهي لاهيةٌ بالنظرِ إلى الورود، ثُمَّ سألها عن حالتها الاجتماعية، استحتْ أنْ تُجيبهُ فأردف: هذهِ البَسمة الخجلى بسمة عذراء.

احمّرتْ وجنتاها قبلَ أنْ تقول: أجل عذراء، وغادرتْ على الفور.

مرَّ يومان وجاءتها رسالة نصّية من رقمٍ مجهولٍ كُتِبَ فيها: السلامُ على الحالِمة بفارسٍ كَعنترة.

رَدَّتْ برسالة: وعلى العابِرِ السلام.

سألها: وكيفَ عرَفتِ أنَّهُ أنا؟

أجابته: لأنَّهُ لا أحدَ يعلم أمر عنترة إلَّا أنتَ وأنا.

ومن حينها دارَ الحديث بينهما.

مَضى أسبوع على هذهِ المُحادثة حتّى فاجأها برغبتهِ في التقدّمِ لها، سُرّتْ بخبره، تَقدّمَ لها، اِستخارتْ رَبّها، وافقتْ عليه.

مَرَّ عامٌ على خِطبتهما، وهُما الآن يستعدّان للزفاف.

أرسلَ إليها: السلامُ على ابنة قلبي، وشطر رَّوحي، وأمان نفسي، الحالِمة بعنترة سابقًا، العاشقة لزوجها حاليًا، هل اِنتهيتِ من وضعِ الزينةِ يا فتاة؟

رَدَّتْ برسالة: وعلى ابن قلبي السلام، حلمي السابق، واقعي الحالي، كُلّي وجُلّي وأصلي، أماني واطمئناني، مُزيلُ هَمّي وأحزاني، عنترةُ الحاضر والمُستقبل، فارسي المِقدام، بطلي الهُمام، الرَجُلُ الأوحد بقلبي وعقلي وعَيني، حينَ التقيتُكَ تَوّردَ قلبي فَرُدَّ لي جمالي وحُسني، فلم يَعُد الوجهُ

شاحبًا، ولا الشَعرُ مُتساقِطًا، حتّى حبوبَ الوجهِ وَلَّتْ والوضاءة حَلّتْ، فلا حاجةَ لي بزينةٍ وأزينُ الزينات زوجي.

أتاها بعدما قرأ الرسالة، طرق الباب، خرجتْ الفتيات من الغُرفةِ عدا أُمّهِ وأُمّها، استأذنتها وأسرَّ لها، أخذتْ تبتسم حتّى سألها: ألا ترُدّين؟

أسرّتْ لهُ فابتسمَ ثُمَّ قال: أسرعي ولا تنسي أنْ ترتدي هذا الجلباب؛ فأنا لا أُريدُ أنْ يُشاركني أحد النظرَ إلى حُسنكِ وزينتك.

أومأت لهُ، ثُمَّ دسّتْ بجيبِ درعهِ مُصحفًا صغيرًا، وطلبتْ منهُ أنْ يُمسكهُ ويقرأ منهُ بعض آي الذِكر الحكيم حتّى تتجهز له.

قَبَّلَ جبينها وانصرف، عادتْ هي لتُكمِلَ زينتها بعدما سجدتْ للَّهِ شُكرًا على عظيمِ فضله، وجزيل عطاءه، ثُمَّ تحسّستْ قلادتها المُزيّنة بصورةِ زوجها، قَبّلتها ودسّتها بدرعها.

7_ قلم وورقة وخمسة جنيه

صَلَّى الفجر ثُمَّ عادَ لبيته، دلفَ المطبخ ليُعِدَّ وجبة الفطور لنفسهِ قبلَ أنْ يذهبَ إلى العمل، دقائقَ معدوداتٍ وأنهى قَلي أقراص الفلافل، وضعها جانبًا وأخذَ يُتبِّل صَحن الفول المهروس، لُحيظاتٍ وصّبَ الشاي في كوبهِ المُفضّل (الخمسينة).

مَضى ربع ساعة وللتوِ أنهى تناول الإفطار، ثُمَّ قامَ فارتدى ملابسهُ وذهبَ إلى الجامعةِ حيثُ يعمل.

أوقفَ سيّارتهُ بمَركَنِ السيّاراتِ الخاصّ بالجامعة، ثُمَّ حَمَلَ حقيبتهُ وأسرعَ للمُحاضرة، ما أنْ وصلَ حتّى فاجأهُ الطُلّاب بحفلٍ هادئٍ مُناسبةً لذِكرى ميلادهِ الكريم.

تهللتْ أساريرهُ لرؤيةِ الورد المنثور في قاعةِ المُحاضرات، وكذا القصاصات الورقية المُلّونة التي تحوي همساتٍ من قلوبِ طُلّابهِ لقلبهِ الشريف، بالإضافةِ لبعض صناديق الهدايا رائعة الشكل والمُحتوى.

تُرى ما الذي فَعَلهُ هذا المُعلّم جعلهم يتذكّرونَ ذِكرى ميلادهِ بل ويحتفلونَ بها؟

قبلَ خمسةِ أعوامٍ من الآن أَذِنَ اللَّهُ لهُ بالبلاءِ فماتتْ زوجهِ وحبيبةُ عُمره، وكذا ولديهِ عيسى وسَلَمَة، رَضيَ بقضاءِ اللَّهِ وقدرهِ وصبرَ بُغية وجه ربّه، ثُمَّ أخذَ عهدًا على نفسهِ ألَّا يدعَ فِعلَ خيرٍ يقدرُ على فِعله،

ومن حينها لم يُغلق بابهُ في وجهِ أحد، كما لم يُجبر الطلبة على شراءِ مؤلفاتهِ الدراسية؛ حيثُ جعلها صدقةً جاريةً على رَّوحِ عائلتهِ الراحلة إثر حادث أليم.

وفي العامِ الماضي فَعَلَ شيئًا لا يُمحَى من ذاكرةِ طُلّابه؛ فقد لاحظَ غياب أفضل طُلّابهِ وحينَ سألَ عنهُ أخبروهُ أنَّ أباهُ قد تعسّرَ ماليًا فتوقفَ عمله، ولم يجد عُمر مفرًا من تركِ الجامعةِ والعمل لتوفيرِ إحتياجات أُسرته، هرعَ المُعلّم إلى بيتِ عُمر وعَلِمَ أكثر عن ما حَدَث، ثُمَّ طلبَ من عُمر العودة إلى الجامعةِ صبيحة اليوم التالي، مُطمئِنًّا إيَّاهُ أنَّ أباهُ سيُعيد فتح شركتهِ مرّةً أُخرى.

مَضى يومانِ وتبدلتْ الأحوال بعدما أعطى المُعلّم ما ادّخرهُ من مالٍ لأبي عُمر، الذي سُرعان ما شَرَعَ في العمل ويكأنَّهُ لم يتعسّر.

سالتْ عَبراتهِ فرحًا بما أعدَّهُ الطُلّاب من إحتفالٍ بذِكرى مولده، ثُمَّ شكرهم وأثنى على صنيعهم، وبدأ مُحاضرتهِ وسط أجواء مُبهجة للقلب، مُسعِدة للنفس، ويكأنَّهم يقولونَ لهُ: لا تَحزن مُعلّمنا إنَّ اللَّهَ معنا.

جلسَ هذا العاطلُ عن العملِ يحقدُ على جاره؛ فهو يعمل ويَكدّ رُغم كونهِ يَعيش بمُفرده، وهو العائلُ لزوجهِ وبناتهِ قد تَمّ فصلهِ من عملهِ ولم يَجد آخر.

ظلَّ يُفكّرُ في طريقةٍ للحصولِ على أموال جاره، ظنًّا منهُ أنَّهُ أَولى بها منه، فَكَّرَ وفَكَّرَ وفَكَّر حتّى أهداهُ حقدهُ لسَرقته، ومن ثَمَّ التَحصُّل على مالهِ الذي لا يُعَدُّ كما يَزعُم.

مرَّ شهران وحانَ موعد التنفيذ.. دقّتْ الخامسة مساءً بتوقيتِ القاهرة، وهذا هو الموعِد الذي حددهُ اللصّ لسرقةِ جاره، اِرتدى زيًّا غريبًا وقناعًا وقفازان ثُمَّ اِخترقَ خصوصية الباب الرئيسي للشقة، دلفَ وأضاء المكان بكشّافِ هاتفه، بَحَثَ في الأربعةِ غُرف لكنَّهُ لم يَجد ما جاء لأجله، بَحَثَ في الصالة والمطبخ وحتّى الحمام لكنْ دونَ جدوى، أخذَ يتأفأف ثُمَّ تذكّرَ الغُرفة الخامسة والأخيرة، لمعتْ عيناهُ وأسرعَ إليها.

أثناء ذلكَ عادَ المُعلّم من عملهِ بعدما أنهى يوم الهدايا؛ وهو يومٌ خَصصهُ لإهداء طلبتهِ بما يُدخل السرور على قلوبهم، فيُهديهم بصناديق هدايا نافعة ومُفيدة لهم.

أخرجَ مِفتاحهِ ودسّهُ في ثُقبِ الباب ليُفاجأ بأنَّهُ مفتوح، أسرعَ للداخلِ فأضاء المصابيح، وأخذَ يتفقد غُرفهُ حتّى رأى لصًّا مُتنكرًا، لطمهُ بقوّةٍ فأدمى وجهه، ثُمَّ أمسكَ بالقناعِ وحاولَ كشف وجههِ لكنَّهُ طعنهُ بسكينٍ كانَ يُخبأها بسُترته، لحظاتٍ وسقطَ المُعلّم على الأرض وسالَ دمه.

تذكّرَ عُمر أنَّ مُعلّمهُ قد نَسيَ هاتفهُ المحمول، حَمَلَهُ وأسرعَ إليه، تأخرَ في الوصول؛ نظرًا للإزدحام المروري الذي تُعاني منهُ القاهرة.

مَضتْ ساعتانِ وها قد وَصَلَ عُمر ليُصابَ بالذهولِ من هَولِ ما رأى!

وقفَ أمام باب شقة مُعلّمهِ مُرتَعِدَةٌ فرائصه؛ راعهُ مشهد الدِماء السائلة على الأرض، فثَبُتَ مكانهُ ولم يُحرّك ساكنًا حتّى جاءهُ حارس العقار فسندهُ وذهبَ بهِ إلى المُستشفى.

وصلا المُستشفى وصعدا الطابق السابع بالمِصعَدِ الكهرُبائي، أخذ عُمر يسير بجوارِ عم سعيد (حارس العقار)، حتّى إذا ما وصلا أمام باب غُرفة العِناية المُركّزة ورأى عُمرًا مُعلّمهُ بينَ الأجهزة هَوى أرضًا، أخذَ الطبيب المُعالِج يُطمئنُهُ أنَّ المُعلّم قد تعرّض لجُرحٍ عميقٍ لكنَّ اللَّهَ تلّطفَ بهِ فكَتَبَ لهُ النجاة.

اِستأذنَ حارس العقار عُمر في الذهابِ لقضاءِ أمرٍ ما ومن ثَمَّ العودة إليه.

أَذِنَ لهُ عُمر فذهب.

هاتفَ عُمر أباهُ وأخبرهُ بما حَدَثَ للمُعلّم فحزنَ حُزنًا شديدًا ثُمَّ جاءهُ على الفور.

أخذَ عُمر يُناجي رَبّهُ أنْ يُسلِّمَ المُعلّم ويَمُنّ عليهِ بالشفاءِ العاجل، أثناء ذلكَ أتاهُ عم سعيد بصندوقٍ صغير وأخبرهُ أنَّ المُعلّمَ قد طلبَ منهُ فِعلُ هذا قبلَ نقلهِ للمُستشفى بدقائق.

أخذَ عُمر الصندوق وشكرهُ ثُمَّ فتحهُ ليُفاجأ بقلمٍ وورقةٍ وخمسِ جُنيهات، لم يعي ما العِبرة من هذا الصندوق في بادئ الأمر، لكنْ سُرعان ما وجدَ ورقة مطوية توضح لهُ ما لم يفهمه، فتحها وقرأها ليجد أنَّ مُعلّمهُ قد أوصى لهُ بأثمنِ مُدّخراته، هذا الصندوق الذي يبدو بلا قيمة لمَن لم يَفهَم مقصده.

إلى ابني الذي لم أُنجبهُ وطالبي النجيب، عُمر المُجتهد في طَلبِ العِلم، والمُتمّسك بدينهِ والمعروف بنُبلهِ وأخلاقهِ السامقة، إليكَ بُنيّ هذا الصندوق الذي أُعِدَّهُ ثروتي وكَنزي الدفين، أعلمُ أنَّكَ ستندهش في بادئ الأمر لكنْ ستفرح حينَ تعلمُ غايته.

أمَّا عن القلمِ فهذا هو رمز الحياةِ بالنسبةِ لي، فأنا أكتبُ إذًا أنا أحيا، والكتابة مِنّة ربَّانية لإراحةِ العَبد من بعضِ أحزانه، وأمَّا الورقة فهي كَالهدفِ ناصع البياض، إنْ شئتَ ملأتها بسعيكَ وعملكَ وذيّلتها باسمك، وإنْ شئتَ تركتها فارغة ناصعة البياض بلا جدوى، وإنّي أرجو اللَّهَ أنْ تُذيّلها باسمك، وأمَّا الخمس جُنيهات فهذهِ آخر أوّل أجرٍ تقاضيتهُ مُذ عُيّنتُ مُعيدًا، فضّلتُ الإحتفاظَ بها لأنَّها تُمّثلُ بعضَ

عُمري، فلم أتحصّل على ذلكَ الأجر إلَّا بعد صبرٍ وجُهدٍ ومُعاناة ومُثابرة.

تبسمَ عُمر ودسّ الصندوق بجيبهِ ثُمَّ أكملَ مُناجاته.

على الصعيدِ الآخر تَمّ القبض على عابد رضوان مُحاسب مفصول من العمل، والمُتوَرط في جريمة سرقة شقة الدكتور سهل مسعود ومُحاولة قتله، وعليهِ فقد تَمّ اِتخاذ الإجراءات القانونية ضدّهُ وهو الآن سجين على ذمّةِ التحقيقات.

بينما قامتْ زوجهِ ببيعِ شقتهم المُلاصقة لشقةِ المجني عليه، وابتاعتْ أُخرى بمنطقةٍ بعيدة عن حي إقامتهم السابق، وأخذتْ ابنتهُ الكُبرى تبحث عن عملٍ لتَعولَ أُمّها وأُختيها.

8_ كوكب آخر

ليتني أستطيعُ مُغادرة الأرض والذهاب إلى كوكبٍ آخر شريطةَ أنْ يكونَ مُهيَّأً للحياة؛ كي أحيا في هدوءٍ عميقٍ بعيدًا عن ضوضاءِ هذا الكوكب، أيضًا لأتنَّفسَ الهواء الطَلق الغير مُلّوث، لكنْ للأسفِ الشديدِ لا يوجد، لذا فإنَّني سأظلّ هُنا فعليَّ التأقلُم والتعايُش.

ثُمَّ طوتْ صفحة دفترها ودسّتهُ تحتَ وسادتها ونامتْ.

جاء الصباح كعادتهِ لم يَحمل لها جديد، فبعدَ أنْ تُصلّي فجرها تجلسُ بمُصّلاها تذكرُ اللَّهَ حتّى تطلع الشَّمس من مغربها، ثُمَّ تتناول وجبةَ الإفطارِ كَروتينٍ لبقائها على قيدِ الحياة، وبعدها تقرأ في أحد كُتبها التي تحتفظ بها، ثُمَّ تُشاهِدُ التلفاز لتُعمِلَ عقلها ببرامجهِ المُفيدة والنافعة، وهكذا حتّى يُؤَذن لصّلاةِ الظُهر.

يَضيعُ عُمرها هدرًا بغيرِ فائدة، حُبِستْ بينَ جُدرانِ البيت دونَ جِنايتها، سُلِبَتْ حقوقها التي أحقَّها اللَّهُ من فوقِ سبعِ سماوات، حُرِمَتْ السماء والشَّمس والهواء الطَلق، حتّى كادتْ أنْ تنسى أنَّ الدُّنيا بها شَّمسٌ وسماء.

صّبرتْ وما حِيلة الضُعفاءِ إلَّا الصّبر، كانتْ قوية، شُجاعة، لا تخشى إلَّا اللَّه سُبحانَهُ وتعالى، مَيّزها اللَّهُ بمَيزاتٍ ربَّانية وآثرها بها دونَ سِواها، كانتْ كَالنسرِ لا يقدر أحدٌ على أخذِ ما في يدها، تُحلّقُ بجناحيها بحُرّيةٍ

ولم يجرؤ أحدٌ على التقرُّبِ منها؛ لعِلمهم بقوّةِ شخصيتها ورجاحة عقلها، فهي الهادفة التي لا تَرى أمامها سِوى هدفها الذي طالما حَلمتْ به، ظلّتْ كَالنسرِ الطليقِ حتّى قُصَّ جناحيها بيدِ والدها، وهُنا كانتْ الصدمة بالنسبةِ لها.

إنْ كانَ قَصُّ جناحيها آلمها قيراطًا فإنَّ اليدَ التي قَصّتهما قد آلمتها أربعة وعشرون، لم تَحذر منهُ أبدًا، بل لم يجيءُ بمُخيّلها أنَّهُ سيقضي عليها يومًا ما.

وممَّن تَحذر؟

من والدها؟!

أيحذرُ الفرعُ من الأصل؟

أم يَحذرُ البعضُ من الكُلّ؟

كادَ عقلها يُجنّ، كيفَ لفتاةٍ أنْ تَحذرَ من رَجُلها الذي خُلِقَتْ من صُلبه؟

ظلّتْ حائرة بعدما جُرِحَ قلبها بسَيفِ الغدر على يَدِ والدها؛ حينَ حرمها حقّها في التعليم، ومِن ثَمَّ سلبها سائر الحقوق فيما بعد، اِحتجّتْ فصُدِمَتْ من ردّهِ الذي أثبَتَ لها أنَّهُ كما قَتَلَ قابيل هابيل، فإنَّ الوالدَ

أيضًا يُمكنهُ قتلُ بَنيهِ ولا غَرابةَ في ذلكَ؛ ما دامَ الحقد هو سيّد الحدث.

رُبما لم تَكُن تَعلمُ الكثيرَ عن حقدِ الوالد لأبنائهِ حتّى تعرّى لها حقد والدها، وهُنا توقف عقلها عن الإستيعابِ بعضَ الوقت، ثُمَّ عادَ ليُمارسَ عملهُ كما لو كانَ قد نَشِطَ من معقل.

أخبرها غيرَ مرّة أنَّهُ يَملِكُ الكثيرَ من المالِ لكنَّهُ لن يدعها تُكمِلُ تعليمها، إذ أنَّهُ لا حاجةَ لهُ بما ستَحصُل عليهِ من شهادات، كما أنَّهُ لن يقبلَ بأنْ تكونَ هي أفضلَ منه، بل ولن يَسمح بأنْ تظهرَ للعامّة؛ فهي كُلّما وضعتْ قدمها بمكانٍ وضعَ اللَّهُ لها القَبولَ بهِ فأحبَّها النّاس، وهذا لا يُرضيه.

عَلِمتْ ولأوّلِ مرّة بعُمرها ماهية الجرح؟

بل كيف يكون حقد الوالد على بَنيهِ؟

لم تشعُر مُنذُ اللحظة بطُمأنينة القلب بعدما جُرِحَ فتخثّرتْ دِماه.

لم تيأس فسلّمتْ أمورها للَّه، ورَضيتْ بسوءِ القضاء طالما مَن قدّرهُ هو اللَّه، ثُمَّ بحثتْ بداخلها عن بَصيصِ أملٍ فوجدتهُ بحُبِّ رَبّها، شَدّتْ عليهِ وظلّتْ تُجاهِدُ نفسها حتّى غدتْ غير آبهةٍ بما يُحاكُ لها من مكائدٍ كفيلة بأنْ تُعطّلَ حالها بعدَ قضاءِ اللَّهِ وقدره؛ أجل هُناكَ بعض الأفعال المُشينة الشركية بمقدورها أنْ تؤذي وتُعطّل الحال، وقد

ذاقتْ حسناء بعضًا منها، حتّى أنَّها كادتْ أنْ تُودي بها لولا أنْ أحاطتها عِنايةُ اللطيف، فقاومتْ وقاومتْ وقاومتْ حتّى عادتْ تقفُ على رجليها بعدما تركتْ فِراش الموت.

لم تَكُن تعي ما يُدبَّرُ لها لكنَّ اللَّهَ هو خيرُ الماكرين، نجّاها من المهالكِ المحتومة، وعافها من أذى والدها، ونصرها عليهِ حينَ قرّبها إليهِ أكثرَ وأكثر، ومع مرورِ الأعوام لم تَرى للجُرحِ أثرٌ بقلبها ولا لوالدها؛ فقلبها طرّادٌ لكُلّ ما يُغضبُ الإله، ووالدها قد أغضبَ القهّار حينَ عصاهُ في الأمانة فسلبها حقوقها وظلمها، وأخيرًا يكيدُ لها المكائد بمُعاونةِ مَن أشركوا باللَّهِ فامتهنوا السِحر، وكُلّ هذا بسبب حُبُّ اللَّهِ لها.

من حينها أيقنتْ حسناء أنَّهُ لا أمانَ إلَّا مع اللَّه، بعدما حَدَثَ ما لم تتوقعه، ثُمَّ عَلِمتْ أنَّ لكُلِّ داءٍ دواء ما دامَ المرض في الجسد، فإنْ كانَ المرض بالقلبِ فلا دواء لهُ إلَّا تقوى اللَّه، كما أنَّهُ سيظلّ مريض الحقد حاقدًا ولو قدّمتَ لهُ قلبكَ على صَحنٍ ليقضمهُ فيُرضي حقده، لذا كُن مع اللَّهِ ولا تعبأ بمَن سواه.

أخرجتْ دفترها لتسطُرَ بهِ ما عَزَّ عليها تحقيقهُ واقعيًا.. دفتري العزيز حامِلُ همّي، كاتِمُ سرّي، شريك فضفضتي، أمَّا بعد.

دفتري يا مَن تحمّلتني على كُلّ حالاتي، تفكّرتُ في أمركَ فوجدتكَ أغلى ما أملك، فأنتَ وإنْ كُنتَ تبدو كَالورقِ الذي لا قيمةَ لهُ في نَظرِ

البعض، إلَّا أنَّكَ تُمّثلُ بعضًا منّي؛ فقد حَبَرتُ بأوراقكَ بعضي على هيئةِ أحرُف، لذا فأنتَ منّي كَالورقِ منك.

كثيرًا ما حلمتُ أنْ أخرجُ من هذا المكان الضيّق لأرى رحابة الدُّنيا، لكنَّ الأفاعيل والمكائد تحول بيني وبينَ تحقيق حُلمي، ورُغم ذلكَ لم ولن أيأس فكما عهدتني باللَّهِ قوية، باللَّهِ شُجاعة، قلبي ينبضُ بالأمل، عقلي يشّع تفاؤل، ولينصرنّي اللَّهُ نصرًا مؤزرًا، وسأسطُرُ سنوات جبري كما سطرتُ لحظات كسري.

ظلّت حسناء تنتظر الفرج حتّى استيقظتْ ذات صباحٍ على موعدٍ مع جبرِ اللَّهِ لها؛ إذ فُتِحَ لها باب الغُرفة المُرفقة بدورةِ المياه (مَحبسها الذي حبسها فيهِ والدها)، ولأوّلِ مرّة مُذ سنواتٍ تدلف الشَّمس لغُرفتها لتُعلنَ لها بأنَّهُ لا زالتْ لديها فُرصة لتبدأ من جديد.

قد أجابَ اللَّهُ دعوتها فأخرجها من ضِيقِ والدها إلى سَعَةِ زوجها؛ ورُغم أنَّ والدها قد تعنّتها برفضِ كُلّ مَن رغبَ في الزواجِ منها إلَّا أنَّ اللَّهَ بالِغُ أمره، تقدّمَ لخِطبتها آدم بعدما سَمِعَ ما أثلجَ صدرهُ من حُسنِ سيرتها وسمتها الحَسن.

هذهِ المرّة لم يستطع والدها أنْ يرفض كما كانَ يفعل؛ لأنَّ آدمَ قد نهاهُ عن التعنّت وحذّرهُ إنْ فعلَ سيكون عُرضة للسَجنِ من قِبلِ والدهِ

القاضي بالمحكمة الشرعية لتلك المُحافظة، خشي فؤاد على نفسهِ السَجن فوافقَ على زواجِ آدم من حسناء.

مرّ شهران وحانَ الزفاف، وها هي حسناء تتزين لزوجها بعدما عُقِدَ حُبّهِ بقلبها مُذ شاهدتهُ بالرؤيةِ الشرعية وهو كذلك.

اِرتدتْ ثوبها الأبيضُ كما بشرتها الصافية، المُزيّن باللؤلؤِ والمَرجان، ووضعتْ عليهِ وشاحها الأسود كَشعرها الفاحم، ثُمَّ زادتْ زرقاواها جمالًا ببعضِ الكُحل، ونقشتْ على يديها بالحنّاء.

سويعاتٍ وكانتْ جاهزة للذهابِ إلى بيتها مع زوجها الحبيب، جاء آدم وأخذها في زَفّةٍ جميلةٍ جمعتْ كُلّ نساء عائلتهِ وعائلتها إلى حياتها الجديدة، التي ستبدأ بعد لحظاتٍ مع هديةِ اللَّهِ لها.. زوجها آدم.

رودي ما بكِ؟

رودي، رودي أينَ شردَ ذهنك؟

تنّبهتْ لصوتِ أُمّها فأجابتها: بخيرٍ أُمّي.

إذن ما سرّ هذهِ الدَمعة؟

رودي بعدما مسحتها وطوتْ الكتاب الذي بيدها: كُنتُ أقرأُ هذا الكتاب أُمّي فراعتني قصّة غريبة لم أعهدها من قبل.

سألتها الأُمّ بفضول: وما هي؟

تنّهدتْ رودي وأخذتْ تسرد لها قصّة كوكب آخر وبطلتها حسناء فؤاد حتّى انتهتْ.

تنّهدتْ الأُمّ هي أيضًا قبلَ أنْ تُضيف: الحمدُ لِلَّهِ أنْ أرسلَ لها آدم، كُلّ شيءٍ وارد الحدوث في زماننا هذا.

تبسمتْ لها رودي ثُمَّ همستْ لقلبها: أمَّا عنكَ فلا تقلق سيُرسِلُ اللَّهُ لكَ مَن يَليقُ بك.

9_ وأخيرًا وجدتني

نشأ في بَيتٍ يُقدِّرُ العِلم ويُجلّ العُلماء، هَوَى القراءةَ مُنذُ صِغره، حَفِظَ كتابَ اللَّهِ العظيم، اجتهدَ في طلبِ العِلم، كما كانَ يَسيرُ على عَينِ أباهُ الشيخ المُعلّم إبراهيم.

أضحتْ القراءة همَّهُ الوحيد بعدَ استذكار دروسه، ظلّ صاحبُنا يقرأ ويقرأ ويقرأ حتّى قرأ عددًا كبيرًا من الكُتبِ المُتنوعة، وهو لم يتجاوز السادسةَ عشرَ بعد.

فكّرَ كثيرًا كيفَ يُمكنهُ إخراج بعضًا من مَكنونِ ما أوهبهُ اللَّه، حتّى اهتدى لقرارٍ رشيدٍ وهو أنْ يكتُبَ في مجلّة الأزهر؛ إذ كانَ أزهريًا.

فكتبَ مقالهُ الأوّل وهو ابنُ سبعةَ عشرَ عامًا، ورغم سنّهِ الصغير إلَّا أنَّهُ تَفوّقَ في كتابته، ما جعلَ مقالهُ يُنشرَ ضِمنَ عدد مجلّة الأزهر، فَرِحَ صاحبنا بكرمِ اللَّهِ له، وراحَ ببراءةِ قلبهِ يُطلِعُ مُعلّمهِ للُغةِ الإنجليزية ليُشاركهُ فرحته، لكنَّ المُعلّمَ قد خَلَفَ ظنَّه؛ إذ لم يُبدي أيّ إعجابٍ بقلمِ تلميذه، والذي هو أهلًا لهذا الإعجاب، بل نَظَرَ إليهِ بكِبرٍ قبلَ أنْ يُضيف: لعلَّ الشيخ فُلان ابنُ بلدتكَ هو مَن توّسطَ لكَ ليُنشرَ مقالك!

ألم يَعلم هذا المُعلّم أنَّ جَبر الخواطر على اللَّه؟

ماذا لو تصدّقَ عليهِ بكلمةٍ طيّبة، أكانتْ ستَتسبّبُ في موتهِ؟

أينَ هو من أخلاقِ المُعلّم؛ حيثُ التشجيع والدعم وإعطاء مِقدارًا من الأملِ للتلاميذ؟

ألم يعلم مدى تأثير الكلمة على النَّفس، خصوصًا في هذهِ السِن الخَطِرة من عُمرِ الإنسان؟

ضاقَ صدر صاحبنا لسماعهِ كلماتٍ من شأنها أنْ تُثّبط همّته، لكنَّهُ لم يرتكن لِما ألَّمَ بقلبهِ من خُذلانِ مُعلّمه، فطوى قلبهُ على جُرحهِ وراحَ يقرأ ويقرأ ويقرأ حتّى غدا مُميّزًا بينَ أقرانه، كما لم ينضب مِدادَ قلمهِ بل زادَ في الكتابةِ وأتقنها.

تَفوّقَ صاحبنا في الثانويةِ الأزهرية ثُمَّ التحقَ بالجامعة، وبعدَ أربع سنواتٍ تخرّجَ صاحبنا ليَشُّقَ طريقهِ في المجالِ الأقربُ إلى قلبهِ والأحبُّ لنفسه، مجال الصحافة.

ظلَّ صاحبنا الطَموح يبحث هُنا وهُناكَ عن عملٍ يَليقُ بما لاقاهُ من نَصبٍ ووصبٍ طِيلة سنوات الدراسة، في بادئ الأمر لم يَجد، لكنَّهُ بكُلِّ تأكيدٍ لم ييأس، وأخذَ يسعى ويسعى حتّى أخبرهُ أحدُهم أنَّ عليهِ الذهاب لإحدى الجرائد؛ كي يُقابِل أحد أعضاء مجلس إدارتها، ومن ثَمَّ يُعيّن بإحدى وظائفها، اِنفرجتْ أساريرهُ وظنَّ أنَّهُ قد وجدَ ما كانَ يبحث عنه.

مَضى يومانِ وحانَ موعِدِ المُقابلة، ارتدى صاحبنا بذلتهُ المُتناسقة، وحذاءهُ اللامع، ليبدو حَسن الهِندام.

ذهبَ وجلسَ ينتظر حتّى حانَ دوره، دلفَ وفي مُخيّلتهِ أنْ يَلقى ترحابًا وحفاوة، لكنَّ ذلكَ لم يحدُث؛ إذ لاقى فتورًا وعدم تقدير من قِبلِ مَن أتى لمُقابلته، أخبرهُ بأنَّهُ قد جاءهُ بُناءً على رغبةِ فلان، لكنَّهُ لم يُعرِهُ أيّ اِنتباه، ولوّحَ بيدهِ ثُمَّ أضاف: ليسَ لدينا وظائف خالية، وعادَ يبحث في أوراقهِ عن شيءٍ ما في إشارةٍ منهُ بانتهاء المُقابلة.

لم ييأس صاحبنا من سوءِ القضاء، ورَضِيَ بما قدّرهُ اللَّهُ سُبحانَهُ وتعالى، وظلَّ يسعى ويسعى ويسعى مُتسلّحًا بالدُعاء، وآخذًا من الكتابِ رفيقٍ له، وجاعلًا ما يُلاقيهِ من تعنُّتٍ وقودَ قلمهِ الوّهاج.

أرادَ اللَّهُ لهُ الخيرَ فكانَ سفرهِ لإحدى الدول العربية الشقيقة؛ حيثُ لاقى التقدير الذي يستحقّهُ هُناك، وأخذَ اسمهُ في البزوغِ حتّى عُرِفَ وعُرفَ قلمه.

أثناء سنوات إقامتهِ هُناكَ عَمِلَ في إحدى الجمعياتِ الخيرية، وذات يومٍ ذهبَ إلى عملهِ ففوجئ بمجموعةٍ من الكُتبِ تبّرعَ بها أحدهم لتُوزّعَ على المكتبات، لم يصعد لمكتبهِ بل هرع إليها يتبيّنها؛ وما ذاكَ إلَّا لشدّةِ نَهمهِ للقراءةَ وحُبّهِ لها، فوقعَ بيدهِ كتابٌ لصاحبِ القلم الرحيم الأستاذ عبد الوهاب مطاوع، أخذَ يتصفحهُ فإذ بقلبهِ يهفو لباقي ما

ألَّفَ الراحل _رَحِمَهُ اللَّه_ ومن هُنا كانتْ البداية، بداية الحُبّ الخالص لوجهِ الرحمٰن، من قلبِ تلميذٍ لمُعلّمهِ وإنْ كانتْ الكُتب هي نبتةُ هذا الحُبّ.

ظلَّ صاحبنا يقرأ للأستاذ عبد الوهاب مطاوع حتّى أنهى جميع ما كتبهُ، ثُمَّ أعادها ثانية وثالثة وعاشرة، وحَزِنَ لموتهِ أيُّما حُزنٍ لكنَّ سلواهُ ما تحويهِ مكتبتهُ من مؤلفاتِ الراحل رَحِمَهُ اللَّه.

أرادَ أنْ يشكرَ التلميذ مُعلّمهُ فكتبَ فيهِ ترجمةً راقية، ما قرأها قارئٌ إلَّا وأثّرتْ في وجدانه.

كما اعتمدَ التلميذ على الاستدلال بمقولاتِ مُعلّمهِ في مُختلَفِ كتاباته؛ وحُقَّ لهُ ذلكَ فمقولات الأستاذ عبد الوهاب مطاوع إنْ أُضيفتْ لنصٍّ أثرته، لعدمِ خُلّوها من العِلمِ والإيمانِ والحِكمة.

عبد الوهاب مطاوع كانَ إنسانًا بكُلِّ ما تحملهُ الكلمة من معاني.

لم يعبأ صاحبنا لمجدٍ أو شُهرة؛ فما يَعنيهِ هو أنْ يَصِلَ العِلمُ إلى أكبرِ عددٍ من النَّاس، ليكونَ قد أدى الأمانةَ التي يحملها قلمه، والتي هي رسالةٌ سامية لا يُنكرها إلَّا جاهل أو حاقد.

كما يَعلمُ عِلمَ اليقين أنَّ للقلمِ رسالة لا بُدَّ من تبليغها بالوجهِ الذي يُرضي اللَّهَ سُبحانَهُ وتعالى، وكذا كانَ الأستاذ عبد الوهاب مطاوع _رَحِمَهُ اللَّه_ يُنّوه أنَّ الكلمة أمانة.

 # مريم توركان